تفسير ابن كثير

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من إياك وقرأ عمرو ابن فايد بتخفيفها مع الكسر وهي قراءة شاذة مردودة لأن إيا ضوء الشمس وقرأ بعضهم أياك بفتح الهمزة وتشديد الياء وقرأ بعضهم هياك بالهاء بدل الهمزة كما قال الشاعر : .

(فهياك والأمر الذي إن تراحبت موارده ضاقت عليك مصادره) .

ونستعين بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراها وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم والعبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبعير معبد أي مذلل وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة { إياك نعبد وإياك نستعين } فالأول تبرؤ من الشرك والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى ا D وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى : { فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون } { قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا } { رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا } وكذلك هذه الاية الكريمة { إياك نعبد وإياك نستعين } وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لأنه لما أثنى على ا فكأنه اقترب وحضر بين يدي ا تعالى فلهذا قال { إياك نعبد وإياك نستعين } وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من ا تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب] وفي صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم [يقول ا تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل إذا قال العبد { الحمد رب العالمين } قال ا حمدني عبدي وإذا قال { الرحمن الرحيم } قال ا أثنى علي عبدي فإذا قال { مالك يوم الدين } قال ا مجدني عبدي وإذا قال { إياك نعبد وإياك نستعين } قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال { اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل] وقال الضحاك عن ابن عباس على { نستعين وإياك } غيرك لا ربنا يا ونرجوك ونخاف نوحد إياك يعني { نعبد إياك } هما B طاعتك وعلى أمورنا كلها وقال قتادة { إياك نعبد وإياك نستعين } يأمركم أن تخلصوا له

العبادة وأن تستعينوه على أموركم وإنما قدم { إياك نعبد } على { وإياك نستعين } لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم وا أعلم فإن قيل : فما معنى النون في قوله تعالى : { إياك نعبد وإياك نستعين } فإن كانت للجمع فالداعي واحد وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام ؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير ومنهم قال يجوز أن تكون للتعظيم كأن العبد له قيل إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل { إياك نعبد وإياك نستعين } وإن كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى ا D وفقرهم إليه ومنهم من قال إياك نعبد ألطف في التواضع من إياك عبدنا لما في الثاني من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة ا تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ولا يثني عليه كما يليق به والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب ا تعالى كما قال بعضهم : .

(لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي) .

وقد سمى ا رسوله صلى ا عليه وسلّم بعبده في أشرف مقاماته فقال : { الحمد الذي أنزل على عبده الكتاب } { وأنه لما قام عبد ا يدعوه } { سبحان الذي أسرى بعبده ليلا } فسماه عبدا عند إنزاله عليه وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول : { ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } وقد حكى الرازي في تفسيره عن بعضهم أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة لكون العبادة تصدر من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق قال ولأن ا يتولى مصالح عبده والرسول يتولى مصالح أمته وهذا القول خطأ والتوجيه أيضا ضعيف لا حاصل له ولم يتعرض له الرازي بتضعيف ولا رد وقال بعض الصوفية العبادة إما لتحصيل ثواب أو درء عقاب قالوا وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده وإما للتشريف بتكاليف ا تعالى وهذا أيضا عندهم ضعيف بل العالي أن يعبد ا لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال قالوا ولهذا يقول المصلي : أصلي ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العقاب لبطلت الصلاة وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا : كون العبادة D لا ينافي أن يطلب معها ثوابا ولا أن يدفع عذابا كما قال ذلك الأعرابي : أما أني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل ا الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي صلى ا عليه وسلّم [حولها ندندن]